الخمر
في ديوان الشيخ أحمد الوائلي

د. حسن عبد عوده الخاقاني
كلية الآداب – قسم اللغة العربية

د. ميثم مهدي صالح الحمامي
كلية التربية الأساسية – قسم اللغة العربية

الخلاصة:

يتناول هذا البحث إحدى الظواهر المهمة التي برزت في شعر الشيخ الوائلي وهي ظاهرة استعماله الخمر وتوظيفه لأغراض فنية مختلفة.

وقد حاول البحث أن يحصي مرادفات الخمر وأدواتها وأساليب استعمالها وصولاً إلى بعض دلالاتها، وذلك لغرابة استعمال الوائلي لهذه الأداة في سياق الشعر الديني وموضوعاته المعروفة التي نظم بها الشيخ الوائلي (رحمه الله)

المقدمة:

يعد الشيخ أحمد بن حسون الوائلي ١٩٢٨-٢٠٠٣ م أحد الأعلام المشهورين في مجال الخطابة الحسينية والعلم والثقافة الاجتماعية عامة، وقد ولد في مدينة النجف الأشرف ونشأ بين منتدياتها وهو من أسرة عربية أصيلة عرفت بالميل إلى العلم والأدب. فكان مهيّأً ليأخذ لنفسه مكاناً بارزاً في هذه المدينة التي تعج بالأعلام ويتناشد أهلها الأشعار في الطرقات والأسواق ويتجادلون في أمور الدين والدنيا كلما جمعهم مجلس أو مكان.

وقد كانت للشيخ الوائلي مشاركة واسعة في الحياة الأدبية والعلمية في مدينة النجف الأشرف فكان عضواً بارزاً في المحافل والجمعيات الأدبية كجمعية منتدى النشر والرابطة الأدبية وكانت له مشاركات واسعة في الاحتفالات الدينية والأدبية التي تقام على مدار العام في النجف الأشرف.

وقد غلبت صفة الخطابة الحسينية على الشيخ الوائلي فأخفت إلى حين بعض مواهبه الشعرية التي لم تعرف إلا قليلا، ولكن ديوانه الذي بين أيدينا يثبت غير ذلك إذ هو يكشف عن شاعر كبير وموهبة فذة تستحق الاحترام والتقدير وينبغي أن يطول الوقوف عندها لغرض الدراسة.

جاءت دراستنا الموجزة هذه لتلم بإحدى الظواهر البارزة في هذا الديوان وهي ظاهرة الخمر فتتبعنا استعمالها لدى الشاعر لنبين دواعي هذا الاستعمال وتنوعه في الأدوات والدلالة مبينين أنها تمثل جزءاً من ثقافة الشاعر ومحصوله الفكري والأدبي العام، وليس لها أية علاقة مادية بحياته، وهذا هو شأن كثيرٍ من الشعراء الملتزمين الذين استعملوا الخمر أداة فنية تعبيرية ولم يجاوزوها إلى غير ذلك.

وقد جاء البحث بتمهيد عنوانه ((الخمر في تراثنا الشعري))،تناولنا فيه مسير الخمر على ألسن الشعراء . بعدها انتقلنا إلى استعمال الخمر في شعر الشيخ الوائلي، فقسمنا ذلك إلى :(لوازم الخمر ، واستعمال معاني الخمر ، والموازنة ، والخمر مقرونة بالحزن).

نرجو أن نوفق فيما أردنا والله ولي التوفيق.

الباحثان

التمهيد

((الخمر في تراثنا الشعري))

الخمر: شراب يعتصر من بعض النبات ولاسيما العنب، وقد عرفته الحضارات القديمة وتفننت في صنعه وحفظه، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم من بين نعم الله على خلقه، ولعل هذا الذكر قد أغرى أبا نواس بأن يحتال في أمر شربها مقتديا بأمير المؤمنين هرون الرشيد بقوله:

أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

هي الشمس إلا أن للشمس وقدة وقهوتنا في كل حسن تفوقها

فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا في الدهر إلاّ رحيقها

وقد كلف العرب بحبها، وتفننوا في شربها قبل أن يهل عليهم نور الإسلام، إذ حرمها الله تدرجاً لعلمه بشدة ذلك الكلف بها، ولما أتى الجزم بحرمتها أريقت دنانها في شوارع المدينة المنورة، وكف المسلمون عن شربها مادام النبي (ص) فيهم، فلما غادرهم إلى جوار ربه اجترأ بعضهم على العودة إليها ولعل أشهرهم في ذلك أبو محجن الثقفي الذي قال:

إذا مـت فـادفني إلـى جنـب كرمـة تـروّي عظـامي بعـد مـوتي عروقهـا

ولا تـــدفنني فـــي الفـــلاة فـــأنني أخـــاف إذا مـــت أن لا أذوقهـــا

هذا في زمن الخلفاء الراشدين، وقد حد أبو محجن على فعله، أمّا عندما آل الأمر إلى بني أمية فقد جعلوها في بلاطهم وأحلوا كؤوسها مقاماً محموداً، واصلين أمرهم بالجاهلية التي سبقت الإسلام حين لم تكن الخمر غريبة على الحياة وعلى الشعر (فقد قال الأعشى فيها شعراً رائقاً في الجاهلية، وتعامل معها الأخطل التغلبي على عصر بني أمية الباكر، ثم كان الملك الأموي الوليد بن يزيد مفرطاً في شربها مبدعاً في وصفها حتى أن بعض الدارسين يعده الرائد الحقيقي لشعر الخمر) [١] وإذا كان شعراء الجاهلية قد ذكروا الخمر فإنهم (لم يزيدوا على وصفها ووصف شرّابها من الندامى، وبعضهم جعلهم فتياناً يتحلون بخلق الفتوة العربية لا تأخذ الخمر بألبابهم وهم ينعمون بمجالسها، وقد تجتمع لذة الخمر عندهم بلذة النساء أو بلذة الصيد والركوب) [٢] وهذا ما نجده واضحاً في شعر امرئ القيس وشعر الأعشى الذي أحسن في وصفها، ويتميز منهم عمرو بن كلثوم صاحب المطولة التي افتتحها بالخمر على غير العادة، ومنها قوله[٣]:

ألا هبـــي بصـــحنك فاصـــبحينا ولا تبقـــي خمـــور الانـــدرينا

مشعشـــعة كـــأن الحـــص فيهـــا اذا مـــا المـــاء خالطهـــا ســـخينا

وقد كان الشاعر الجاهلي معذوراً في ذكر الخمر في شعره لأنها جزء من حياته، (فعمرو بن كلثوم بدأ مطولته بذكر الخمر ومباكرة شربها ووصف ما تفعل بشاربيها إذا كانوا كراما أو كانوا أشحة بما تبعث فيهم من الارتياح والبذل والسخاء ... وليس أكثر ملاءمة من افتتاح قصيدة الفخر بالخمر، فالفخر حالة من الإحساس بالعظمة والشعور بالكبرياء والتعالي وكذلك حالة شارب الخمر فهي تبعث في نفس شاربها الشعور بالعظمة والخيلاء والتعالي[٤]) ويقول الأخطل التغلبي مخاطباً الخليفة الأموي:

إذا مـــا نـــديمي علّنـــي ثـــم علّنـــي ثـــلاث زجاجـــات لهـــن هـــدير

خرجـت أجـر الـذيل تيهـاً كـأنني عليـــك أميـــر المـــؤمنين أميـــر

وكان العرب يعتقدون أن الخمر مما يبعث على السخاء والشجاعة والإقدام، وهي حقاً كذلك لأنها تذهب بالعقل وتخدره مؤقتا، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت في جاهليته:

ونشـــربها فتتركنـــا ملوكـــا وأســـداً مـــا ينهنهنـــا اللقـــاء

أما الإفراط فيها ،فلم يجد كبير رضا عندهم ، بل إن بعضهم قد حرّم شربها قبل بزوغ نور الإسلام، وكان شرب القليل منه يمثل دافعا مقبولا لممارسة القيم الأخلاقية كالكرم والشجاعة مثلما وجدناه عند زهير وعمرو[٥] .

ولكن الحال تغيرت على يد الأمويين حين صارت مجالس الخمر مجالس فسق ومجون (وأول ما بدا من تغير في شكل الخمريات على لسان الوليد بن يزيد الخليفة الأموي وبعض شعراء الكوفة في أخريات عصر بني أمية أوائل القرن الثاني للهجرة ... وقد نهج هؤلاء الشعراء في شعرهم عامة، وفي الخمريات خاصة نهجا جديداً في شكله وأسلوبه ومعانيه يميل إلى الخفة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعاني لروح الحضر والمدنية، ويمكن أن نذكر لهذا النهج مثالاً من شعر الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الشاعر يقول فيه:

أدر الكـــــــأس يمينـــــــا لا تـــــــدرها ليســـــــار

اســـــق هـــــذا ثـــــم هـــــذا صـــــاحب العـــــود النضـــــار

مـــــن كميـــــت عتقوهـــــا منـــــذ دهـــــر فـــــي جـــــرار

ختموهـــــــا بالأفـــــــا ويـــــه وكـــــافور وقـــــار) [٦]

هذا ما كان من أمر الخمر عند العرب في الجاهلية [٧] وعصر بني أمية (ولّما أقبل العصر العباسي بترفه ومجونه وانفتاحه على أقوام كثيرة ولاسيما الفرس والروم شاعت الخمر وتوسعت مجالسها وكثرت حاناتها وأنديتها وزاد الإقبال عليها وتوفر الشعراء على وصفها بصورة لم تحدث من قبل، ويبدو أن الحرية والتساهل كانتا وراء هذا الإقبال، ولم يكن الخلفاء بمعزل عنها، فان أكثرهم شربها) [٨] وقد عرف شعراء بحبها والهيام بها ومنهم من وقف شعره عليها واغرم بها (وهو أبو الهندي غالب بن عبد القدوس الذي كان يحب الخمر ويبكي لفراقها ويحن إليها حنين الفطيم إلى الرضاع، فها هو يقول بعد أن أبطأ عن شربها مدة:

أديـــرا علـــي الكـــأس إنـــي فقـــدتها كمـــا فقـــد المفطـــوم در المراضـــع

حليـف مـدام فـارق الـراح روحـه فظـل عليهـا مسـتهل المـدامع)[٩]

وكان شاعر آخر يحب الخمر، هو ابن هرمة، (بل يحب السكر إلى الدرجة التي تجعله يترنح في الطرقات حتى يطارده الصغار مرددين: سكران، سكران، انه يرجو ذلك وكأنها أمنية عزيزة:

اســـأل الله ســـكرة قبـــل مـــوتي وصـياح الصـبيان: يـا سـكران)[١٠]

ولعل أشهر من اشتهر بحب الخمر وإحسان القول فيها الشاعر أبو نواس الذي كان نديم العباسيين وعد من أكثر من أجاد في وصفها والتفنن في الإحاطة بها ومن ذلك قوله:

لا تبـك ليلـى ولا تطـرب إلـى هنـد واشرب على الورد من حمراء كـالورد

كأسـا إذا انحـدرت فـي حلـق شـاربها أجدتـــه حمرتهـــا فـــي العـــين والخـــد

فـــالخمر ياقوتـــة والكـــأس لؤلـــؤة مـــن كـــف جاريـــة ممشـــوقة القـــد

تسـقيك مـن عينهـا خمـراً ومـن يـدها خمـراً فمـا لـك مـن سـكرين مـن بـد

لـــي نشـــوتان وللنـــدمان واحـــدة شـيء خصصـت بـه مـن بينهم وحـدي

وظل حال الخمر عند الشعراء كذلك يصفونها وصفاً حسياً مادياً، مقترناً بالأثر الذي تحدثه في النفوس والأجساد حين تذهب بالعقول وتحل النشوة محلها، حتى جاء المتصوفة وفيهم من الشعراء من حال بالخمر عن الحقيقة إلى المجاز فأكثروا من استعمالها وذكر لوازمها وما تحدثه في الأجساد، كل ذلك يجري مجازاً يراد به ما يحدث الحب والاتصال الرباني بالنفوس التي تعشقه ورنت إليه متخلصة مما ران عليها من وشل الدنيا المذلة، ولعل ابن الفارض الشيخ العارف المصري المتوفى سنة ٦٣٢ هـ أشهر من عرف بذلك وسن سبيل السلوك للشعراء، ومن يطالع بعض ديوانه يرى كيف مزج الشيخ بين الخمر والحب وقد ساقهما في سبيل المجاز مكنياً بهما عن حب الله ومعرفته، ومن ذلك قوله [١١] في تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك:

ســـقتني حميـــا الحـــب راحـــة مقلتـــي وكأسـي محيـا مـن عـن الحسـن جلّـت

فأوهمـــت صـــحبي أن شـــرب شـــرابهم بـه سُـرُّ سـري فـي انتشـائي بنظـرة

وبالحـدق اسـتغنيت عـن قـدحي ومـن شـمائلها لا مـن شـمولي نشـوتي

ففـي حـان سـكري حـان شـكري لفتيـة بهـم تـم لـي كـتم الهـوى مـع شـهرتي

ولمـا انقضـى صـحوي تقاضـيت وصـلها ولـم يغشـني فـي بسـطها قبض خشية

وقد تلاقف الشعراء هذا النهج واستطابوا السير عليه من قبله ومن بعده، حتى صار الأمر جليا للشعراء الذين مضى بهم الزمن إلى العصور المتأخرة وما تبعه من عصر عرف بعصر النهضة، فهؤلاء كانت ذخيرتهم الشعر العباسي وما فيه من تنوع كانت الخمر بارزة فيه فقلدوه بكل ما فيه، وشاع على ألسنتهم وفي أنديتهم القول بالخمر تقليداً مستمداً من ذلك الشعر الذي حفظوه وعلى نسجه نسجوا فاشتهر في ذلك شعراء كبار، ولم يغب عن دواوينهم ذكر الخمر ، يأتي في مقدمتهم السيد محمد سعيد الحبوبي الذي فاق سواه في حسن القول في الخمر والدقة في استقصاء أوصافها وما تحدثه من أثر في النفوس على طريقة القدامى، هذا مع كونه رجل دين وأدب لم يذق الخمر يوماً ولم تلامس شفاه الطاهرة.

ويسلك الشيخ أحمد الوائلي في سلك هذه المدرسة التقليدية التي اتخذت من شعر الخمر صنعة وأداة فنية غايتها التفنن في القدرة على قول الشعر، والتعبير مجازياً عما لا يمكن التعبير عنه حقيقة، ولذلك نحن ندرس ظاهرة الخمر في شعر الشيخ الوائلي انطلاقاً من هذا الفهم.

استعمال الخمر في شعر الشيخ الوائلي:

ينطلق الشيخ أحمد الوائلي في استعماله الخمر في شعره من دافع فني في أغلب الأحيان، مفيداً من إحاطته الواسعة بالأدب العربي قديمه وحديثه إذ أصبح هذا الأدب زاداً ثقافياً يمد ذاكرة الشاعر بخزين كبير، ويسعفها في إيفاء حاجتها من التعبير، ولذلك تنوع استعمال الخمر لديه في شعره ولم يقتصر على منهج واحد في الاستعمال، ومن أجل أن يحيط البحث بهذا الاستعمال وتنوعه رأينا إخراجه على النحو الآتي:

(١) **لوازم الخمر:** ونقصد به الاستعمال الجزئي للخمر من حيث الرموز أو الأدوات أو المفردات التي تشير إلى هذا الاستعمال، وهي كلها أجزاء من الصورة العامة التي قدمها الشعراء العرب، ومن ذلك قوله[١٢] في قصيدة رثاء مستذكراً أيام شبابه:

سـنّي رحلـتَ بـذكرياتٍ حلـوةٍ مـن عهـد ذوق متـرف ومـذوق

أيـام يسـكرني الشـباب فاحتسـي فـي كـل مـاء خمـرة بعروقـي

نشـوان أعطـي الـنجم بعـض تخـايلي وأعير شمس الصبح بعض شروقي

فقد قرن الشباب بالسكر، وما يرتبط به من نشوة جاعلاً الماء خمراً، وهذه الاستعارة تعبر عن التشابه

بين مرحلة الفتوة حيث القوة والاندفاع بالحياة من دون تبصر بالعواقب وهي تشبه حال السكران الذي تصدمه الإفاقة على الواقع.

ويستعمل الوائلي مفردة ((الثمالة)) وهي آخر ما يتبقى في الكأس بعد الشراب، ويبدو أن لها لذة أكبر من أول الشراب، معبراً بها عن آخر العمر إذ يخاطب ابنته الصغيرة ((جمانة)) بقوله[١٣]:

جمانـــــة إن حصـــــاد الســـــنين علـــى مـــا عهـدت الـوَنَى واللّغـوب

ولكنمـــــا النبـــــع رغـــم الفتـــور ســـــيبقى ولا يعتريـــــه النضـــــوب

وتبقـــــى الثمالـــــة أشـــــهى مـــــن البـــــواكير عنـــــد لهـــــاة الشـــــروب

ويبقـــى صـــدى الماضـــيات الحســـان ألـــــذّ وإن ذهبـــــت لا تـــــؤوب

ويستعمل المعنى نفسه في قصيدة أخرى هي ((في ذكرى الشبيبي)) بقوله[١٤]:

فكـــان حظّهُـــم مـــن كـــل مترعـــة ثمالـة الكـأس إن سُـرُّوا وان غضـبوا

وهنا تظهر المقابلة بين ((مترعة وثمالة)) وهو ما نجد قريباً منه في قوله[١٥]:

أجـل سـوف تـأتي الكـأس وهـي ثمالـة فيشـرب منهـا الفضـل وهـو قنـوع

ويستعمل الوائلي مفردة ((الزق)) استعمالاً مجازياً في قصيدة ((رسالة الشعر)) بقوله[١٦]:

ومـن الطـوى جنـب البيـادر صـرّع وبجنـــب زق أبـــي نـــواس صـــرع

وقد حمل البيت على إيجازه مقابلة مؤلمة صورها التصريع بين الجوع المهلك والغنى المبطر. ويعود الوائلي إلى استعمال مفردة الزق نفسها ولكن في سياق من لوازم الخمر وذلك في قوله[١٧]:

وجلـــوت الصـــدى عـــن الكـــاس فـــافتر وبـــي للسُّـــلافة البكـــر شـــوق

أنـــا لـــولا وحـــي لـــديك لمـــا مـــو ســـق عـــود عنـــدي وعربـــد زق

أمّا الكأس فهي من الألفاظ الخمرية كثيرة الدوران في شعر الشيخ الوائلي، ولعلها من أكثر مفردات الخمر استعمالاً وتنوعاً في شعره ومن ذلك قوله [١٨]:

وعربـــدت الكـــاس ثـــم الســـقاة وعربـــــدت الخمـــــر والخابيـــــه

وفي قصيدة ((خطرات في العيد)) يعطي الكأس معنى رفيعاً بقوله[١٩]:

وبكاســـي صـــبابة هـــي خيـــر مـــن غـــدير مـــا نلتـــه بجهـــودي

(٢) **استعمال معاني الخمر:** يتسع مجال استعمال الخمر لدى الوائلي حين يتجاوز استعمال المفردات الدالة على الخمر أو بعض لوازمه وأدواته إلى استعمال صورة موسعة منه يجتمع فيها الخمر والشراب وآثاره، ويجري كل ذلك في باب المجاز الذي يحيل دلالة الألفاظ على معاني أخر يكشف عنها السياق العام لمجرى القصيدة، وهو بهذا يوسع الاستعمال على عدّة أبيات من القصيدة، ولم يصل يوماً إلى قصر القصيدة كلها على موضوع الخمر، ومن ذلك قوله[٢٠]:

أســـاقيتي كـــم شـــربنا معـــاً ولـــــذ باســـــماعنا محفـــــل

فمـــا مـــل ثغـــرك ثغـــري ولا ســـــئمنا ولا ادبـــــر المقبـــــل

يســـاجل فيـــك الغبـــوق الصـــبوح فأســـــأل أيّهمـــــا أفضـــــل

بـــــأحمر ينعشـــــني لونـــــه فلـــــون اليواقيـــــت أو أجمـــــل

أشـــدك للثغـــر فعـــل الرضـــيع بثـــــدي إذا شُـــــدّت الأنمـــــل

واقـــرأ وجهـــي عليـــك ومـــا إذا كـــــان يكبـــــرُ أو يـــــذبل

وأعـــرف فيـــك الصـــديق الـــوفي فعشـــــرٌ تصـــــرَّمنَ أو أطـــــول

فالذي يبدو من القصيدة أنها تخاطب الخمر أو كأسها لكن الحقيقة غير ذلك لأن القصيدة كتبت في كأس

شاي تحطمت بعد أن لبثت لديه عمراً، فخلع عليها صفات الخمر حتى عادت كأنها كأس خمر.

ويفيد الوائلي أيضاً من أجواء الخمر ليرسم صورة واسعة له تستمر مع عدة أبيات في قصيدة ((محاورة مع النيل)) وذلك بقوله: [٢١]

يا نيل لو ظفر الرشيد بليلة من ليلك المخمور بالأنخاب

الباعث الخيام في خطراته نغماً على شبّابة وربابِ

والمستثير على نشيّج ((سُومةٍ))[*] مهجاً سبحن من الجوى بعباب

لسلا لياليه وعاف بساطه وجثا على رمل هنا وتراب

وحبا إلى كأس ولفّ ذراعه خصراً وبلّل ثغره برضاب

حتى إذا أهوى الخمار برأسه وسجا وآذن وعيه بذهاب

أرضى أمانيه وأرسل طبعه وانفك من خطأ به وصواب

(٣) **الموازنة:** يستعمل الوائلي أسلوب الموازنة أحياناً بين نمطين مختلفين من الحياة وتكون الخمر ممثلاً لأحد هذين النمطين، ومن ذلك ما أورده في قصيدة ((ليلة في بغداد))[٢٢] التي يرسم فيها الصورة العامة للحياة في هذه المدينة ولا سيما جانب اللهو والمجون التي يجتمع فيها الطرب والسكر مع النساء:

فخرجنا والبدر أسفر مرتا حاً وألقى من زهوه طيلسانه

لا نرى غير عاشق رنحته في ثنايا الطريق بنت الحانه

بين كفيه غادة أغرقتها قبلٌ وهي لم تزل ظمآنه

ويفرد الوائلي نفسه عن هذه الصورة بعرض صورة مقابلة، صورته هو إذ يقول[٢٣]:

مـا أنـا مـن طغـت عليـه شـمول أثقلتـــــه وطففـــــت ميزانـــــه

أنـــا مـــن معشـــر إذا هـــدأ الســـا مـــر أو أطبـــق الـــدجى أجفانـــه

كـان إلـف الكتـاب فـي هـدأة الليـ ـــل وكانـــت قيثـــارة قرآنـــه

أنـــا ســكري طرائـف مـــن خليـل تخـــذ العلـــم والتقـــى عنوانـــه

ويدخل الوائلي الخمر مدخلاً سياسياً في باب الموازنة أيضاً وذلك حين يتناول قضية الفقر الفاشي في الناس مع غزارة ثروة البلاد ممثلة بالنفط، وذلك في قصيدة ((محنة الدهر)) ومنها قوله[٢٤]:

نحـن مـن أجلـه قُرِعنـا رؤوسـاً ولـــــديكم تقـــــارع الأنخـــــاب

إن فـــي كأســنا مـــن الـــنفط دمعـــاً ولـــدى القـــوم خمـــرة وحبـــاب

هـا هـو الشـعب وهـو دمـع وبـؤس وهـــم الخمـــر والهـــوى والكعـــاب

أيـن مـنكم مجاعـة الشـعب والبـؤ س وأنـــــتم مدامـــــة وكعـــــاب

ويسير في الاتجاه نفسه حين يعقد موازنة أخرى بين الشعب الأعزل الذي يتلقى ضربات الأعداء القاسية وبين قادته اللاهيين العابثين الذين لا يهتمون لأمر هذا الشعب أدنى اهتمام، ويظهر ذلك في قصيدته (سناء محيدلي) وهي من بطلات الجنوب اللبناني التي قاومت الاحتلال الإسرائيلي واستشهدت في عملية بطولية في الجنوب، وذلك بقوله[٢٥] من تلك القصيدة:

تقضـــم منـــا الأجنبـــي بنابـــه ومـن أهلنـا الحكـام نـاب ومخلـب

فـــنحن بظفـــر الكاســـرين فريســـة يمزقنـــا هـــذا وذلـــك ينهـــب

ونحـــن بكـــف الفـــاتحين مناهـــب كرامتنـــا تســـتام والأرض تســـلب

وقادتنـــا ليـــل وخمـــر وســـامر ينضّـــر ليـــل المتـــرفين وربـــرب

ومفتـرش النعمـى وبالشـعب فاقـة ومسـتروح والشـعب يشـقى ويتعـب

ونحـن ضـياع وامتهـان ومحنـة سـنبقى بهـا حتـى يثـور المعـذب

ويدرج الوائلي في هذا السبيل استعمال ((الدم)) بمعنى الخمر، وذلك حين يجعل الظالمين المجرمين يعبون دماء الشعب المظلوم كأنها كؤوس خمر لذيذة لبين بشاعة الجرم في سلب حقوق الآخرين ، ومن ذلك ما يرد في قصيدة ((خداع))[٢٦]:

أمن الشعب من يعب دماء الشعب خمراً والشعب عانٍ شريد

(٤) **الخمر مقرونة بالحزن:** حين يبث الشيخ الوائلي لواعج نفسه المحزونة فإنه يعرج على ذكر الخمر لتكون علامة حزن مشفوعة بالأنين، ونجد ذلك ظاهراً في مواضع كثيرة من ديوانه، لكنا سنقف عند بعضها على سبيل التمثيل، ومن ذلك قوله في قصيدة: ((دعوة إلى الشباب))[٢٧]:

تغـرب حزنـي فاسـتحال أغانيـا وقـد يبـدع الألحـان حـزن تغربـا

وعنـدي قـواف مـن همـوم حملتهـا فمـا بعـض شـعري غيـرُ هَمٍّ تعربـا

مـا هـز أوتـار الحشـا مثـل لاعـج فـأبكى كمـا شـاء البكـاء وأطربـا

وللحـزن خمـر لـيس يعـرف فعلهـا سـوى مـن حسـا مـن كاسـها وترضَّـبا

وبـالحزن جمـر صـاغ كـل ملاحـم وصـالاً وهجرانـاً وعشـقاً ترهبـا

تقلّـب بـين الجمـر والخمـر خـافقي فيـا لفـؤاد بـين ذيـن تقلبـا

وأخلـد للأحـزان حتـى عشـقنه وغازلنـه إلفـا وتِربـاً محببـا

فعاش ولم يعرف سوى الحزن والجوى فلـو مـرت الأفـراح فيـه تعجبـا

ولعل أبرز ما يلحظ في هذه المقطوعة هذا الحزن الطاغي الملتف على النفس والروح معاً وقد تجسد فنياً في ظاهرة فنية هي رد الأعجاز على الصدور التي تكررت في أكثر من بيت، وهو حزن أصيل منبعث من عمق النفس إذ دلت عليه هذه الظاهرة الفنية لأنها جاءت منسابة غير مقصودة بنفسها وإنما تطلبها البناء الفني

نفسه.

ويظهر هذا الحزن الأصيل لدى الشيخ الوائلي في قصيدة أخرى هي: ((حنين))[٢٨] وقد زاحمته ذكريات إخوانه في النجف الأشرف فكانت منها هذه الأبيات:

لقد كان دمعي رائد الحزن شأنه إذا لزّ في وقع الجوى يتفجر

ولكنه إذ أصبح الحزن ديدني تحول خمراً دائماً منه أسكر

وكان الذي يشكو الزمان أعده فتى يتعاطى صنعة ويثرثر

فعدت وشكوى الدهر عندي سجية وشيء له وقع الخطوب يبرر

أما أبرز مجالي الحزن والحنين فنراهما وهو يبث حزنه الموجع إلى صغاره الذين اضطر لمفارقتهم مرغماً وذلك في قصيدة: ((رسالة إلى صغاري))[٢٩] التي هي عبارة عن أنّات محزون مؤلمة تمدها قافية النون الشجية التي امتدت بها الياء بعيداً ومن ذلك قوله جامعاً بين الحزن والخمر:

لا تلمني إن الملام تجني وأعني إذا استطعت أعني

ما احترفت الجوى لأقلع عنه فأشر للجوى ليقلع عني

ما سوى الحزن في الوجود فلا تكـ ـثِر لومي إن صرت مدمن حزن

وإذا ما سبرت دني فلا تلمح غير الأحزان خمراً بدنِّ

أن لحناً يصوغه الحزن لحن عبقري من دونه كل لحن

نظرة أخيرة:

لقد أفاض الشيخ الوائلي في استعمال الخمر من حيث مفرداتها ومن حيث صورتها أو ما تتركه من آثار في شاربها وكل ذلك جاء من باب الاستعمال الفني الذي يجعلها وسيلة أو أداة لغاية تعبيرية هي المقصودة من هذا الاستعمال الذي يرجع في أصله إلى كونه جزءاً من حصيلة معرفية واسعة وإلمام ثقافي اجتمع لدى الشيخ من كثرة مطالعته لنتاج من سبقه من الشعراء حتى صار مصدراً تراثياً يستمد منه شعراء العصر الحديث ما ينفعهم في إغناء تجاربهم والتعبير عنها بأحسن صورة وأرشق لفظ.

ولم يكن الشيخ الوائلي بدعاً في ذلك وحده، وإنما سار على نهج من سبقه من أعلام الشعراء المشهورين، ولو شئنا أن نقلب دواوين الشعراء النجفيين خاصة، لوجدنا هذا الأمر شائعاً في شعرهم مع أن بعضهم قد عرف بالزعامة الدينية، فيظل الأمر في نطاق العمل الفني الذي يبرز قدرة الشاعر على تمثل التجربة وإعادة إنتاجها مع القدرة على التأثير في متلقيها، وهذا هو الغاية المرتجاة من الأدب، بل الفن عامة، ونظن ظناً يقرب من اليقين أن الشيخ الوائلي قد نجح في هذا المضمار كما هو شأنه في غيره، إلا أن يكون لبعض النقاد أو الدارسين رأي آخر، على أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.

الخاتمة:

لقد انتهى البحث إلى الوقوف على مواضع استعمال الخمر في شعر الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله تعالى، فتبين من ذلك غنى ذاكرة الشيخ وقدرته في استعمال ألفاظ الخمر وتوظيفها في مجالات تعبيرية مختلفة، مع إلمامه بنواحٍ متعددة مما يتعلق بهذه الظاهرة التي بدت واضحة في تاريخ الشعر العربي على امتداده الطويل، ولدى شعراء العربية منذ الجاهلية إلى يوم الناس هذا.

وقد أفدنا من دراستنا الموجزة هذه في الوقوف على نواحٍ عديدة فنية وموضوعية يضمها ديوان الشيخ أحمد الوائلي، وهو ما يدعو إلى تأكيد الحاجة إلى مزيد من الدراسات العلمية الجادة الرصينة لتقلب هذا الديوان وتقف على إبداع منشئه وتدرس ما فيه من ظواهر تستحق الوقوف الطويل عندها ولربما ستكون لنا وقفة أخرى إن شاء الله تعالى.

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي: ١٩٥.
(٢) دراسات في الأدب العربي: ٨٤.
(٣) شرح ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي: ٦٠-١١٢ وانظر شرح المعلقات العشر واخبار شعرائها: ٧١-٨١.
(٤) نصوص من الشعر العربي قبل الاسلام دراسة وتحليل: ٣٧٨.
(٥) ظ: دراسات نقدية في الأدب العربي :٣٥.
(٦) دراسات في الأدب العربي: ٨٥.
(٧) ظ: دراسات نقدية في الأدب العربي: ٢٣٧-٢٣٨.
(٨) الأدب العربي في العصر العباسي: ٦٢.
(٩) م.ن: ٦٣.
(١٠) الشعر والشعراء في العصر العباسي: ٨٥.
(١١) ديوان ابن القارض: ٢٣.
(١٢) الديوان: ١٨٧.
(١٣) الديوان : ٢١٢.
(١٤) الديوان : ٤٦٧.
(١٥) الديوان : ٣٠١.
(١٦) الديوان : ٣٢٧.
(١٧) الديوان : ٢٣٥.
(١٨) الديوان : ٢٨١.
(١٩) الديوان : ٢٣١، وانظر: ٢٦١.
(٢٠) الديوان : ٢٦١.
(٢١) الديوان: ٢٢٢
(*) سومة: هو اسم التصغير للسيدة أم كلثوم مطربة العرب الأولى الملقبة أيضاً بكوكب الشرق.
(٢٢) الديوان: ٢٩٢
(٢٣) الديوان: ٢٩٣.
(٢٤) الديوان: ٣٦٠

(٢٥) الديوان: ٣٦٧
(٢٦) الديوان: ٢٠٢
(٢٧) الديوان: ٢٩٧.
(٢٨) الديوان: ٢٩٧
(٢٩) الديوان: ٣٢١

المصادر:

١ -الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٤١٠-١٩٨٩.
٢ -دراسات في الأدب العربي - العصر العباسي، د. محمد زغلول سلام. منشأة المعارف بالإسكندرية، مطبعة التقدم، ب - ث.
٣ -دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد. مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٠.
٤ -ديوان ابن الفارض، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ب - ث.
٥ -ديوان الوائلي، شرح وتدقيق: سمير شيخ الأرض، مؤسسة البلاغ، توزيع مكتبة الإمام الباقر، الناصرية.
٦ -شرح ديوان عمر بن كلثوم التغلبي، شرح وتحقيق د. رحاب غداوي، دار الفكر العربي، بيروت ط١، ١٩٩٦.
٧ -شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، أحمد بن الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت ط٤، ٢٠٠٦م ، ١٤٢٧هـ.
٨ -الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣.
٩ -نصوص من الشعر العربي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي وآخرون، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة بغداد، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد ١٩٩٠.